أحواش قبلي القديمة

بناءات طبيعيّة وموجودات نماء

مُلَخّص

مدينة قبلّي القديمة الموجودة في الجنوب التّونسي مثال لعمارة سكنيّة تقليديّة متجدّدة وموروث معماري حيّ هي نتاج ملموس لتفاعل الإنسان مع محيطه، والمجسّمات المُتمثّلة في مُخلّفات المباني لَعلها دروس في البناء وفي طرائق الإنجاز تدفعنا إلى التّفكير في ماهيّتها. مباني القرية القديمة هي مساكن تقليديّة أقيمت استنادًا لخبرة متوارثة وحصيلة اجتهادات ومن تجارب ذاتية مشتركة، كذلك اعتمادًا على الإحساس الفطري بالاحتياج والوعي البيئي الاجتماعي. صورة واقعية للعمران التقليدي بأشكاله وأساليبه وأدواته، خاصّةً أن المبنى يحاكي كل ذلك من خلال احتضانه لمواد وأدوات بناء هي خامات لمجاله. نماذج وصور لأشكال معمارية قبل أن تكون عمل هندسي -تصنف في خانة العمارة- هي منتج لمجاله البيئي. بناءات تتشكّل في المكان خاصّتِها يرافقها تِباعًا هذا الكمّ من المدّخرات الطبيعية ومخزون الخِبرات. هو دعوة مفتوحة للعمل عليه، ذلك التّشكّل، كتمظهر لفعل البناء. لقد ورث البناؤون مهنتهم عن أسلافهم، هي تجارب متتالية جسّدوها ببناءات متميّزة على بساطتها، لعلّها بناءات تقتصر مواد البناء على مدّخرات الطبيعة من رمل وحجارة وخشب، جُمّعت بحرفيّة كبيرة لتحيك مساكن تُراعي المناخ القاسي وحاجة مُستخدميه. كيف كانت عمليّة التّوافق بين مكوّنات مواد البناء الأوّليّة؟ ما مدى فعاليّتها في أن أجادت بناءً في توافق تام مع محيطه؟ كيف استطاع السّكن التقليدي أن يكون عنصرًا في دورة هو مؤسسها؟

مُقَدِّمَة

مدينة قبلّي القديمة الموجودة في الجنوب التّونسي مثال لعمارة سكنيّة تقليديّة متجدّدة، وموروث معماري حيّ، هي نتاج ملموس لتفاعل الإنسان مع محيطه، والمجسّمات المُتمثّلة في مُخلّفات المباني لَعلها دروس في البناء وفي طرائق الإنجاز تدفعنا إلى التّفكير في ماهيّتها بمعنى، إقامة حوار مع الأنقاض طمعًا في كشف خبايا ما هو ظاهر للعيان وما هو مبهم من بناء. فأحواش قبلّي القديمة هي مساكن تقليديّة أقيمت استنادًا لخبرة متوارثة وحصيلة اجتهادات ومن تجارب ذاتية مشتركة، كذلك اعتمادًا على الإحساس الفطري بالاحتياج والوعي البيئي الاجتماعي. صورة واقعية للعمران التقليدي بأشكاله وأساليبه وأدواته، خاصّةً أن المبنى يحاكي كل ذلك من خلال احتضانه لمواد وأدوات بناء هي خامات لمجاله... نماذج وصور لأشكال معمارية قبل أن تكون عمل هندسي -تصنف في خانة العمارة- هي منتج لمجاله البيئي. بناءات تتشكّل في المكان خاصّتِها يرافقها تِباعًا هذا الكمّ من المدّخرات الطبيعية ومخزون الخِبرات. هو دعوة مفتوحة للعمل عليه، ذلك التّشكّل، كتمظهر لفعل البناء.

"...المسكن بنية "حيّة"

وليس فقط تنظيم محكم لمواد "ميّتة":

يحيا المسكن في وِحدته... وفي أجزائه..."

فريدريك كايسلير[1]

م. زينب قندوز

أستاذة تعليم عالي

المعهد العالي للفنون والحرف

جامعة قابس – الجمهورية التونسية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

زينب قندوز، أحواش قبلي القديمة: بناءات طبيعية وموجودات نماء.- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني والعشرون؛ ديسمبر ٢٠١٣. ص ١٣٤ – ١٤٣.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

أولاً: سكن منتج لمجاله

١/١- سكن ومواد:

يتشكّل الفضاء السّكني بقبلّي القديمة، في جانب كبير منه، بصورة عضويّة وتلقائية دون الارتباط المسبق باعتبارات تشكيلية أو معمارية معينة... إلاّ أنّها تلقائيّة مشروطة تُجاري البيئة المحيطة بها كما تتوافق ومتطلّبات المجموعة. لعلّه، وبالاعتماد على عناصر البيئة المحيطة بها في استخراج مواد البناء وعلى خبرات متوارثة في إيجاد أساليب بنائه، كان وراء حضور مميّز لفضاء سكني بأن أحدث تجانسًا بين الموجود موادًا والمرغوب وظيفة. فما هي طبيعة المواد المستخدمة في إنشاء السّكن؟

تعتبر الحجارة والجبس والجير والطين والخشب من أهمّ المواد التي استخدمت في بناء مساكن قبلّي القديمة. مواد أوّليّة منشأها مجالها الطّبيعي، توسّلها متساكنو المدينة القديمة لإنشاء مساكنهم بأن طوّعوها -تلك المواد- لخدمة الشّكل كما الوظيفة. سواء أكانت حجارة، "تُربة"، أو خشبًا كلّها مواد أساسيّة في التّشييد وليس بتعدادها تِباعًا تمييز واحدة عن أخرى: الحجارة أنواع يوفّرها المجال، بحيث تعترضنا في المناطق الجبليّة. ونظرًا لصعوبة استخراج الحجارة الكلسيّة وقع الاكتفاء بالتقاط الظّاهر منها ويمكن حصرها في نوعين: **حجارة المقاطع** تسمّى "بحجر تفزّة"، أو "حجر نالوُت"، أو "حجر تلش"، والحجر الكلسي. كذلك الفنكر (El fenker) أو الطّوب وهو نوع من الحجارة متواجد بوفرة في منطقة نفزاوة، ويمكن الحصول عليها من مقاطع أرضيّة توجد حذو الأودية والسّباخ.[٢]

إنّ استعمالات الحجارة تختلف حسب موقعها بمعنى موضعها من المسكن أخذًا بعين الاعتبار حجم الحجر من ناحية ومدى صلابته من ناحية أخرى.

- **حجر الزاوية:** يطلق عليها كذلك (الصّمّ) ويستعمل في زوايا البناء، ويكون في الغالب على شكل عمودي.
- **حجر العتب:** وهو حجر مستطيل الشكل، يستخدم كعتب للنوافذ وفتحات التهوية، ولا يتجاوز عرضه في الغالب (٦٠ سم).
- **الدّستور:** ويسمى الكشف ويستعمل غالبًا في أكتاف الأبواب.
- **الوسادة:** وهي حجر صغير على شكل شرائح تنتج من تهذيب الأحجار، وتوضع أسفل قطعة الحجر الضّخمة.
- **المرود:** وهي حجرة صغيرة على شكل شرائح أيضًا، لها طرف حاد مستقيم تسدّ بها الفراغات الصغيرة بين قطع الحجر في الحائط.
- **حجر الدّكّ:** وهي حجرة صغيرة متفاوتة في الحجم، غير منتظمة، يملأ بها الفراغ الأوسط في الحائط والمحصور بين وجهي حائطان.
- **حجر الرّبط:** وهو حجر يمتد بين حائطين، يظهر في أحدهما ويختفي في الآخر؛ ليربط بينهما.
- **الفَرَاشْ:** حجر مُسطّح وصلب يستعمل لتبليط فناء الحوش لمن تيسّرت حاله.

كما أنّه من الملاحظ استعمال مخلّفات الآثار الرّومانيّة من حجارة متفاوتة الأحجام (أعمدة، تيجان...) استخدمت في رفد واجهة الحيطان وبعض من الأرضيّات. إلى جانب الحجارة يكون الآجر، وهو خليط من الجبس والرّمل، إلاّ أنّه يستعمل بقلّة. حجارة وآجر يستدعيان لها رابطًا، ولعلّ الجبس المحلّي هو الرّابط المستعمل بكثرة في قبلّي القديمة، يستخدم كلياط لتثبيت الحجارة والصّخور، كذلك لتغطية الجدران من الداخل والخارج وحتى الأرضيّة.

يجهّز الجبس محلّيًا وذلك باستخدام بقايا حجارة المقاطع، بحيث تُحرق هذه الأخيرة "تطُيّب" في أفران "كوشة" مُجهّزة لهذا الغرض، حيث يُرصّ الحجر الجيري حول "دوران" الفرن من الداخل على شكل أسطوانة، تمتد من أسفل الفرن وحتى أعلاه، ثم يرصّ الطوب من الداخل على شكل دوائر تنتهي في أعلاها بشكل مقفل، ويترك الفراغ الأوسط الذي يمثل شكلاً مخروطيًا، لإدخال مواد الحريق كالخشب والحطب من خلال فتحة تتصل بقاعدة المخروط مباشرة، وتستمر عملية الحريق إذ تشتعلُ فيها النّيران لأكثر من يومين، إثرها وبعد خمود النّار تكسر الحجارة إلى أن يتمكّنوا من استخراج غبار أبيض "الجبس". كما هو الشّأن مع الجير بحيث يصنع بطبخ الحجارة الكلسيّة في أفران تقليديّة على درجة حرارة تصل إلى ١٠٠٠ درجة.

والجير نوعان: **الجير الحي**، وهو مادة صلبة بيضاء على شكل كتل مختلفة الأحجام من الحجر الجيري، يتم فصله من الجير الناعم بعد عملية الحريق مباشرة، ويحفظ بعيدًا عن الرطوبة وذلك لتعطشه الشديد للماء، وخشية من تحوله إلى جير مطفأ. يستخدم الجير الحي في طلاء الجدران من الداخل والخارج بعد اللّياسة، أي كمادة بياض، حيث يضاف إليها الماء بحذر ويترك الجير مغمورًا داخل الماء لمدة يوم أو يومين، ثم يخلط ويضاف إليه كمية أخرى من الماء حتى يصبح سائلاً صالحًا للطلاء، وقد يضاف إليه كمية من الزهرة (النيلة الزرقاء) للحصول على طلاء ناصع البياض.

كذلك **الجير المطفأ أو البارد:** ويعرف بجير البناء، وهو في الأصل جير حي على شكل مسحوق ناعم، يوضع في أحواض عميقة، ثم يضاف إليها الماء فيؤدي إلى تفاعل شديد ينتج عنه كمية كبيرة من الحرارة ثم يترك هذا الجير حتى يبرد ثم ينقل إلى موقع العمل. يستخدم (الجير المطفأ) في عمليات التلييس المختلفة، حيث يخلط مع الرمل ويضاف إليه الماء ويترك في حوض التخمير لمدة يوم أو يومين، وقد يترك مدة أطول في حالة تلييس الأرضيات.

الرّماد: تحرق مُخلّفات خشب النّخيل في حفر إلى أن تستحيل رمادًا مع على إثرها تخُلط مع الجبس المحلّي، والرّمال المحترقة، والماء وتُستعمل كلياط لسدّ الشّقوق. أو يمكن أن الاستعانة بمسحوق الجير والرّماد الناتج من عمليات الاحتراق (لاستخراج الجير والجبس) بحيث تتجمع هذه المادة أسفل الفرن أثناء نقل الجير الحي من داخل الفرن بعد انتهاء عملية الاحتراق، حيث يتساقط

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

فتات الجير أثناء النقل فوق رماد النار فيجتمع هذا الخليط ليكون مادة جاهزة للاستخدام.

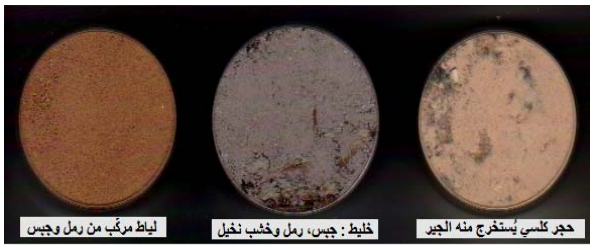

صورة رقم (١)
أنواع الأتربة
المستخدمة في تشييد المباني التقليدية بقرية قبلي القديمة

الرّمل: في الغالب يكون ممزوجًا بالجبس ويقع جلبه من الطّبقات المختلفة الأرض الواد.

الطين: منه يصنع اللّبن والطوب الفخّاري، يستخدم كمادّة للتليس.

يعتبر خشب النخيل من أبرز أنواع الخشب المستخدمة في بناءات قبلّي القديمة، لما لا وهي التّي تحيط بها أشجار النّخيل. استعمل المتساكنون هذه الثّروة الطّبيعيّة بشكل كبير وبطرق مختلفة في بناء بيوتهم وأهم هذه الطرق: **إقامة الأسقف**: استخدموا في إنشائها أخشاب النخيل ومشتقاتها المختلفة، فقامت الجذوع بدور (الكمرات) الحاملة للأسقف، والتي تؤدي إلى تفريغ الأحمال على حوائط الارتكاز الجانبية، ووضعوا فوقها الجريد الذي قام بدور الأعصاب التي تنقل الأحمال من السقف وحتى الجذوع المجاورة عند نقطتي ارتكازها، ووضعوا فوق الجريد حصائر الخوص أو السعف، ثم غطّوها بطبقة من الطين التي قامت بدور بلاطة السّقف الأساسية. وطريقة تحضير المادّة الأولية يكون" بسقوط الخلْطايه،[٣] بحيث تقسّم إلى ثلاثة أجزاء، كل قسم طوله عشرة أقدام... وتترك الأخشاب على المواشي معروضة للهواء والشّمس حتى تجفّ وتخفّ ويسهل حملها وتحويلها. فإذا جفّت جمعت في بطحاء واسعة، ليزال ما عليها من زوائد حتى تسوّى، وتصبح صالحة لصنع أبواب البيوت أو لتسقيفها أو لتقوية الجدران، فتثبّت خشبتان متلاصقتان، ثم يشيّد عليهما البناء، أو تقسّم الأخشاب ألواحا تسقّف بها البيوت"،(٤) "أمّا جريد النّخل فيزال سعفه وتسقّف به البيوت وتثقب الواحدة في ثلاث بقع متوازية حتّى يُغطّى البيت بعد أن تثبّت الأخشاب فوق جداري البيت، ويشرع ثلاثة عمّال في نسج السّدّة، كل واحد في يده حبل رقيق يدخله في الجريدة المثقوبة، ثم يوالي النّسج حتى يغطّي سقف البيت، وتنتهي السّدّة وتغطّى بسعف النّخيل، ثم يُردم السّطح بالتّراب ثم الجبس. أمّا سدّة النّوم فيصنع لها أربعة كراس من الخشب وفوق كلّ كرسيّين تستمرّ خشبة رقيقة، ثم تحطّ السّدّة فوقها".(٥)

- **بناء الأعتاب**: وهي أعالي فتحات الأبواب والنوافذ. تقوم هذه الأعتاب بدورها في توزيع الأحمال على حوائط الارتكاز الجانبية للفتحات، وهناك أنواع أخرى من الأعتاب كالأعتاب الحاملة للدّرج.
- **صنع النوافذ والأبواب**.
- **صنع مزاريب للأسطح**: كانوا يصنعون المزاريب من جذوع النخل، حيث يقطعون الجذع إلى قطع مستقيمة يتراوح طول القطعة بين متر ونصف إلى مترين، ثم يشقّونها فلقتين، ثم يفرغونها، فيتم بذلك الحصول على مزراب خشبي ذو قطاع هلالي، ثم يثبّتونه عند أقل منسوب السطح انخفاضًا ليساعد على تصريف المياه إلى خارج السطح.
- **خشب الأعتاب الأرضية وزوايا الدّرج**: كانوا يثبتون قوائم من خشب عند زوايا الأعتاب والدرج من الجهة الأمامية بالكامل، فيظهر منسوب هذه القوائم مساويًا لمنسوب سطح الدرج الأفقي من الأعلى، ومنسوب قائم الدرج من الأسفل على شكل زاوية قائمة تقريبًا، ثم يثبتون طرف هذه القوائم داخل الحوائط على جانبي الدرج للحفاظ على زوايا الدرج من التكسير نتيجة الأحمال الكبيرة وكثرة الصعود والنزول، أما إذا كان الدرج مبنيًا بالحجر فلا حاجة إلى هذه الزوايا لصلابة الحجر وتماسك أجزائه.

حجر وطين وتُربة[٦] وخشب نخيل... موارد طبيعيّة ومنتوج لمجال واحي متميّز يتشكّل في المجال، وبهذه المواد الفضاء السّكني بقبلّي القديمة. كيف لها أن تنسجم هذه الموارد فتَحِيكَ على أرضها سكنًا هو منتوجٌ لمجالها؟

٢/١- سكن وكيفيّات:

لقد ورث البناءون مهنتهم عن أسلافهم، هي تجارب متتالية جسّدوها ببناءات متميّزة على بساطتها، لعلّها بناءات تقتصر مواد البناء على مدّخرات الطبيعة من رمل وحجارة وخشب.

بناء الأسس: صورة رقم (2)

- **المواد الأساسيّة**: الحجارة الكلسيّة (ما وقع جمعه) والحصى.
- **الرّابط**: جير، جبس.
- **طريقة** البناء: الحجارة موزّعة بطريقة طبقات متتابعة تقع سقايتها بفرشات من اللّياط
- **العمق**: مرتبط بطبيعة الأرض، عموما يتراوح بين (٣٠) و (٤٠) صم.

صورة رقم (٢) بناء الأسس

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بناء الحائط:

- **المواد الأساسيّة:** حجارة المقاطع.
- **الرّابط:** جير، جبس.
- **طريقة البناء:** توضع الحجارة كبيرة الحجم على الواجهتين الدّاخلية والخارجية بطريقة متتابعة ويقع إثرها ملأ الفراغ بينهما بالحصى.

السّمك: بين (٥٠) و (٦٠) صم.

صورة رقم (٣) بناء الحائط

عناصر تدعيم البناية:

- تدعيم **أفقي للحائط:** تقع الاستعانة بخشب النّخيل "نخيل حيّ" ليوضع بطريقة أفقية.
- تدعيم **الزّوايا:** يكون كما التّدعيم الأُفقي (نفس المواد المستخدمة) بحيث توضع قطع الخشب في وضعيّة تقاطع تثبّت فيما بينها بسلك من حديد أو من لوح.
- الدّعائم: تصنع من خشب النّخيل وتكون في الغالب مضاعفة.

صورة رقم (٤) تدعيم أفقي للحائط

السّقف:

- **المواد الأساسيّة:** خشب النّخيل ١/٢ أو ١/٤ الجذع، عصيّ خشبيّة. طبقة للحماية تتألّف من طين، حجارة صغيرة وطبقات من الجبس أو الجير.
- **السُّمك:** (٤٠) و(٥٠) صم.
- **طريقة البناء:** في مرحلة أولى توضع جذوع النخيل على السّطح بعرض الغرفة المزمع تسقيفها متباعدة يُطلق عليها اسم "مرود،ج.مراود" أو "زايزة،ج. زوايز"، إثرها يكون دور العصيّ الخشبيّة في التّغطية إذ توضع الواحدة بجانب الأخرى خلافا لاتجاه موضع الجذوع أي بطريقة الطُّول وأخيرًا، طبقة الحماية وهي عبارة عن مواد لها قابليّة الاكتساب البطيء للحرارة أو للبرودة (طين ممزوج بالجير)، بالإضافة إلى المادّة الخشبيّة. يُمكن أن تحلّ محلّ العصيّ الخشبيّة أو "السّيق" أخشاب تسمّى "الرّبعي" يتراوح طولُها بين (٦٠) و (٧٠) صم وعرضها لا يتجاوز (٢٠) صم.

صورة رقم (٥) "السقف" خشب النخيل المادة الأساسية

التعامل مع الواجهات:

- **الواجهات الداخلية:** مجهزة بنوافذ، أبواب وفتحات صغيرة للتّهوئة. صورة رقم (٦)

نتبين وجود إضافات على مستوى أطر الأبواب على غرار ذلك نجد المنازل الأكثر اتساعًا مشروطة بوجود شرفة وطابق جزئي (غرف) تنفتح على إفريز. ومن الملاحظ أنه؛ تعالج جُدران الطّابق العُلوي كما الطّابق الأرضي بمعنى استعمال الحجارة البارزة في البناء.

صورة رقم (٦) مقطع لواجهة داخلية لدار

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

● **الواجهات الخارجيّة:** يُستعان بالحجارة البارزة لمُعالجة الواجهات الخارجيّة البسيطة.

أحيانا نستنتج تحديدًا للأبواب الخارجيّة بحجارة كبيرة الحجم (pierre de taille). صورة رقم (٧)

وجود البُرطال يمكّننا من قراءة جديدة للجدران الخارجيّة بخلق مناطق ظلال والحجارة ركيزة البناء والعنصر الأكثر تواجدًا. وما نلاحظه جليًّا في العمارة بمنطقة قبلي القديمة بساطة الأبنية حتى بوجود بعض من ملامح التزويق سواء الداخلي أو الخارجي وذلك في مستوى:

- تحديد الأبواب بالحجارة.
- الاستعانة بالحجارة كبيرة الحجم كدعائم لعارضة الباب.
- العارضة تكون من خشب النخيل.

صورة رقم (٧) واجهة خارجية للسّكن

الفتحات: نستخلص ٣ أنواع من الفتحات

● **الأبواب:** للأبواب قياسات هامة في الغالب تكون مُحدّدة بحجارة كبيرة الحجم من مخلّفات الأثار الرومانية، إضافة إلى وجود العارضة التي تكون دائمًا ظاهرة للعيان، كما تقع الاستعانة بقطعتي خشب على طرفي العارضة لتزيد من متانتها.

● **المَرمَاة:** تسمّى "ضَوّايَة" هي فتحات صغيرة تتراوح بين (٢٠/٥٠ صم) و(٢٠/٦٠ صم) وُجدت خصّيصًا للتّهوئة تعلوها دعامة خشبيّة، كما أنها تُعتبر أحد العناصر الأساسيّة في الغرف وضروريّة لموازنة كمّية الهواء الدّاخلة للغرف بشكل متتابع".[٧]

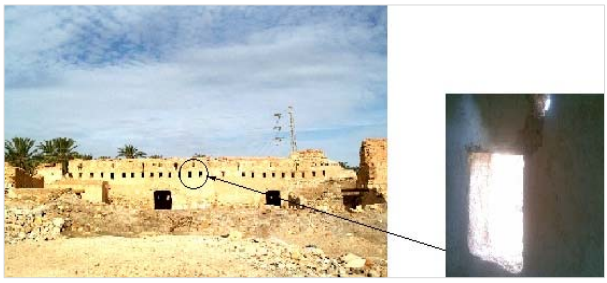

● **النوافذ:** قياس النوافذ يتراوح بين (٦٠/٨٠ صم) و (٨٠/١٠٠ صم)، تتكون من إطار وباب خشبي من الدّاخل وواجهة من حديد مُطرّق.[٨]

لقد أوجدت التّقنيّات لتكون في خدمة البناء بغرض تحقيق وظيفة الإيواء وفي خدمة الشّكل ليكون مُناسبًا ليستجيب لطبيعة هذه الوظيفة، لكن من دون الخروج عن دائرة الإطار الطّبيعي ليستحيل البناء منتوجًا لمجاله. لعلّ طبيعة المواد المستخدمة قد أثّرت على الحوش بأن دفعت بالبناء شكلاً إلى اتخاذ منحى مُحدّد في

دورية إلكترونية، مُحكّمة، ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

فرض طرائق الإنجاز "فجميع البناءات التّقليديّة تستعمل تقنيّات ومواد وأشكال هندسيّة هي بمثابة منتوج لمجال طبيعي".[٩]

مجال وطبيعة وفعل إنساني، تتفاعل جميعها ليكون المسكن. كيف لها في دائرة هذا التّفاعل أن تكون قد خطّت ملامحًا هي الاسم الآخر للحوش بقبلّي القديمة

ثانيًا: سكن بصدد الإنجاز دائمًا

١/٢- سكن... توسّع... وإضافة:

مساكن قبلّي القديمة، محملٌ راوي! أسلوبه حكائي...هو يسرُد... يَصِفُ... أو لعلّه الرّواية ! تتصفّح الورقات ولا تزال... وفي كلّ مرّة تطلب المزيد من الصّفحات والمزيد من أخبار المساكن... عُرِّفْتُ بمواد التّشييد وكيفيّاته، لكن ماذا عن مكوّناته كوحدات؟

تعُدّ المدينة القديمة حوالي (١٢٠) مسكنًا... ما لاحظتُه أنّ البعض فقط من هذه المساكن لا تزالُ جميعُ مُكوّناتها قائمة كالسّقيفة والدّيار وغرف الطّابق العُلوي ولئن اجتمعت في احتوائها لنفس المُكوّنات فإنّها تختلف في بعض من الجُزئيّات تماشيًا واحتياجات ساكنيها، تفاصيل تتحكّم بدورها في اتساع المسكن وضيقه، ولعلّ الاختلاف الموجود بين مسكن ومسكن آخر يكونُ في مُسايرة مكوّناته -عمومًا- للمساحة المخصّصة للمسكن، وفي طريقة وصلها، فتتطوّر أهمية هذا الأخير بتطوّر مساحة هذه المكوّنات.

لئن مكّنتني المعاينة الحينيّة لمُخلّفات مباني المدينة القديمة الوصول إلى استنتاجات إلاّ أنّها تبقي في دائرة ما لوحظ... لقد هُجرت القرية ممّا يُقارب الـ ٥٠ سنة ليستقرّ سكّانُها في الأراضي القريبة بعيدًا عن المجال الواحي، واحتمال وجود اليوم أشخاص قد سكنوها وارد وبشكل كبير، لذلك استعنت بالمسائلة الشّفويّة كمرحلة ثانية، مع استدعاء لأمثلة خمس مساكن علّها في اجتماعها كلّ من المُسائلات والتصاميم كشفٌ لملامح المسكن التّقليدي بقبلّي القديمة.

كان حواري قد اقتصر فقط على الأشخاص الذين يتجاوزُ عُمرهم الخمسين سنة، منهم مَنْ سكن المدينة القديمة، ومنهم مَنْ عايش أناسًا من سُكّانها. أسئلة تشمل بالأساس مكوّنات المسكن، وإليكم ما وصلت إليه من مقاربات:

للمسكن الواحي المسمّى حوش بقرية قبلّي القديمة ثلاثة أنواع:

حوش أساسي أو عنصري: سكن بسيط يحتوي على مجموعة من "الدّيار" مجتمعة حول صحن الدّار ويكون مغلقًا من الجهات الاربعة.

حوش بطابق: يحتوي إلى جانب الحوش الأساسي طابق جزئي مرتبط بهذا الأخير.

حوش مركّب: يحتوي بدوره إلى جانب الحوش بطابق على شبكة مضاعفة تفسح المجال لوجود الشّرفة بالنّسبة للطّابق العلويّ أو الرّدهة بالنّسبة للأرضيّ.

وعلى الرّغم من وجود أكثر من نوع للمساكن، فمُكوّناته هي ذاتها ولا يكونُ الاختلاف إلاّ مع تطوّر مساحة الحوش أي الاتساع. لتكون عناصرُه كالآتي:

- مدخل يسمى سقيفة (sguifa).
- صحن الدّار يسمّى وسط الحوش.
- وحدات للسّكنى تسمّى دار (Dar).
- مطبخ (Matbakh).
- غرفة الطّوابق تسمّى غرفة (Ghorfa).
- شرفة أو أكثر.
- مكان للاستراحة يسمى كنيف (Knif).
- المرحاض.
- مخزن.

السّقيفة: مكان يمكن أن ننعته بصمّام الأمان، فالسّقيفة تلعب دور المرشحة بين المحيط الخارجي والمسكن تكسر نظر المارّة بشكله المنعرج فهو مجال يكون بسيط أو مركّب يتطوّر وفقًا لأهميّة المسكن، ويمكن أن يشغره أصحابه لممارسة نشاطات مختلفة، وعمومًا يمكن التّمييز بين: السّقيفة الخارجيّة "البرّانيّة" أو "البرّا": مكان للاستراحة يُستغلّ لاستقبال الضّيوف والغرباء. وتتميّز السّقيفة البرّانيّة بتوسّعها انطلاقًا من بنيتين مركّبتين:

- مقعد مُنجّد "دُكّانة".
- مقصُورة.

وفي بعض السّقائف الأكثر أهميّة نجد غرفة للضّيوف (نظرًا لعدم السّماح للغرباء بالدّخول إلى المسكن). أما السّقيفة الدّاخليّة "الدّخلانيّة": مكان مخصّص للنساء، يستغللنهُ للرّاحة وممارسة الأعمال اليدويّة كالنّسيج أو الطّبخ إذا ما كان المسكن يفتقر له. ولعلّ خُصوصيّة المكان وحميميّته يحميها الموقع، فهي "سقيفة" تكون أخر الحوش أو في ركن منه شرط أن يكون أيضًا بالدّاخل وليس في المدخل أو الواجهة. ولعلّ المدخل لا ينفتح أبدًا مباشرةً على وسط الدّار، وإنّما هو مسار متقطّع بوجود السّقيفة "البرّا" أو هو ممرّ مُنعرج، وغالبًا ما يفصل عن وسط الدّار باب و"الانكسار من المدخل يسمّيه المؤرّخون العرب الباشورة".[١٠] هذا وقد وُفّق الدّكتور الشّافعي عندما اعتبر السّقيفة كمصفاة، حيث يُستقبل الغريب فيها قبل أن يسمح له بالدّخول.[١١]

صحن الدار: هو الفضاء المركزي المفتوح، حوله تجتمع مختلف عناصر الحوش، إضافة لذلك يعتبر مكانًا مناسبًا يشمل النشاطات العائلية على اختلافها. صورة رقم (٨) وفي الغالب يكون شكله بسيطًا: مربّع وفي مراحله المتطوّرة نجده مستطيل الشّكل.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

صورة رقم (٨) وسط الحوش الواحي

الدّار: عمومًا، هي وحدة تشغر الأجنحة الأفضل وجهة من الحوش، فالدّار غرفة مستطيلة الشّكل متوسّط عرضها (٢,٥) متر ما يتوافق مع طبيعة مواد وتقنيّات البناء المستعملة، طولها يصل إلى (١٠) متر. والدّار يمكن أن تكون لها عدة أشكال منها: **دار بمقصورة** (الارتفاع ٤ متر)، غالبًا ما يحتوي هذا النوع مكانين للنوم تسمّى دُكّانًا و"بالجانب المُقابل نجد بيتًا صغيرًا يُطلق عليها "المقصورة"، ويقع استغلالها لخزن المواد الغذائيّة".[١٢] **ودار بالسّدّة** (الارتفاع ٤ متر). صورة رقم (٩)

صورة رقم (٩) دار بالسّدّة

المطبخ: يعترضنا إمّا وحدة مُستقلّة، أو مضمّنا مع السقيفة "الدّخلانيّة". صورة رقم (١٠)

صورة رقم (١٠) مطبخ

الغرفة: إنّ أهمّ ما يُميّز الغرف هو شكلها المستطيل، وبالتّالي ضيق عرضها، ذلك أنّ طاقة احتمال السّقف الخشبي من جهة وطول جذع الخيل من جهة أخرى هما العنصران الأساسيّان اللّذان فرضا هذا التّركيب الإنشائي. صورة رقم (11)

الشّرفة: غالبًا ما تكون جامعة لغرفتين وتُطلّ على وسط الحوش.

المرحاض: يسمّى كذلك "مِسْتراحْ"، يتّخذ زاوية من الحوش موقعًا له، يتكوّن من عدّة عوارض وفتحات لا تتجاوز الشّبر وخارج الحوش هناك فتحة صغيرة من أسفل المرحاض تستعمل لتنظيفه في أيّام معلومة من السّنة وتّسمّى هذه الفتحة "بالتّنّورة".

صورة رقم (١١) غرفة

المخزن: دار مستقلّة مّخصّصة لخزن عراجين التّمور بواسطة العسكر، "وقد جاءت هذه التّسمية تقريبًا لتساوي العوارض واصطفافها مع بعضها البعض كأنّها جند".[١٣]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

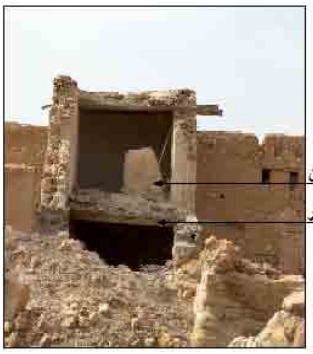

مساكن قبلّي القديمة، فضاء سكني تترامى أطرافه في تقاربٍ... مع امتداد وحداته يكون اتّصالها... سقيفة، "دار"، "ديار"، مطبخ، مستراح، "غرُفْ"... تحوي "وسط الحوش" أو لعلّها تلتفّ به... جميعها وحدات يكون توسّعها على حساب مجالٍ محدود بحيث، يُحاط الحوش بسورٍ عالٍ ليكون فيما بعد جزءًا من وحدة سكنيّة. ولعلّ مساحة الحوش هي التّي تفرض تقسيمًا معيّنًا، بتحكّمها حتّى في شكل ومساحة الوحدة. على اعتبار أنّ "نموّ" الحوش يكون داخل مجال مُحدّد، بحيث يُستغلّ الفضاء حسب الحاجة فيكون بالتّالي في استيعاب دائم لكلّ مُتغيّر.

لئن تشابهت المساكن وتقاسمت مُسمّياتها، إلاّ أن التّميّز كان لكلّ واحدة على حِدا، فالأحواش ليست بـ (modulaire) تتناسخ شكلاً بقدر ما كانت محملاً فيه تفرّد كلّ حوش. لئن تمكّنت من تحديد مكوّنات "الحوش" وتعريفها، فإنّ ذلك يبقى تعاريف ومُسمّيات على اعتبار أنّه لا يمكن حصر مفهوم موحّد، فكلّ واحدة من هذه الوحدات تحمل مفهومًا خاصًّا بها. ولعلّ في التّوسّع والإضافة خلق لفضاءات جديدة من مقولة "العشوائيّة المُنضّمة".

٢/٢- دورة حياة البناء:

استدعت أحواش قبلّي القديمة خامات الأرض والواحة فكانت منتوجًا لمجالها الطّبيعي... احسبني- تلك الأحواش- سُتر أُحيكت من مجالها ليعتمرها متساكنوها... هي مأواهم والمُستقرّ، "تنشأ في الطّبيعة وتتأسّس بها؛ هي طبيعة ثانية أكثر صلابة وأكثر وفاءً. يشعر الإنسان وكأنه محميّ في مكان خصّص له".[١٤] لعلّ المسكن هيكلاً لا يتجزّأ من الطّبيعة وهي التي تُشكّلُ صورته النّهائيّة. بناء يتقاسم المجال مع الواحة ليستحيل احد مُكوّناتها، فكأنّني بالمساكن قد نبتت من الأرض... وانبثقت من أرض الواحات... كما نبتت الأشجار منها، وتشكلت على سطحها شاهقات النخيل. افترشت مساكن قبلّي القديمة أرض الواحة... احتمت بخامات الأرض ونخيل الواحة، ليكون المجال الطّبيعي مَحْمَلا لها، وتستحيل المواد الخام والأوّلية دِثارًا... يحتمي الفرد كما المجموعة من الطّبيعة بالطّبيعة بحيث، يتفاعل البناء مع مجاله فيُلازمه... يتطوّرُ وينمو بتطوّره ونُموّه... ليكون التّجديد، أو لعلّه التّجاوز، نتاجًا لمفهوم هذا التّفاعل.

بناءات في مجالها لم تأخذ بعد شكلها النّهائي، بمعنى وكأننا بها لا تزال في مرحلة الإنجاز... عمارة ناشئة كما هي النخلة وأشجار الزيتون... كما هو العنصر الحي... أجدُني أمام عمارة لا تُبنى بل تنمو، تنبُت الدّار فيها لينهل البناء من الطّبيعة خصائصها، ألوانها وحتّى تقلّباتها... إنّ التّحاور المباشر مع الطّبيعة يجعل من البناءات عنصرًا ينمو بها ويحيا منها. "هاهنا علينا التطلع عن قرب. علامة الإنسان وعلامة الطبيعة مجتمعتان. إنه القانون الحكم".[١٥] قانون المشاركة والتبادل وربما الطاعة والانصياع، فالإنسان كما يقول بيكون:[١٦] "لا يظفر بالطبيعة إلاّ حينما يمتثل لها".[١٧] بناءات تشارك المجال لتكون ضمن منظومة التبادل الدائم مع الطبيعة، هي دورة، الكلّ فعل كما الكُلّ فاعل وفيها الكلّ مفعول به. فما هي مقوّمات هذه الدّورة؟

كما للطّبيعة؛ للبناء دورة حياة بحيث يتبلورُ بموجبها البناء في المدينة القديمة على مراحل وبنسق تطوّري. وإذا ما أردنا سياقة "دورة حياة البناء" فسيكون بتتبّع نسق نموّ البناية، بمعنى تتبّع مراحل تطوّرها. في نسق متتابع، تقومُ الدّورة على تفاعُل عدّة عناصر من مكوّنات طبيعيّة مُؤثّرات خارجيّة. فما هي إذا هذه المُكوّنات؟ كأيّ بناء يكون المنطلق أرضيّة كما جاء في (les lois relatives à la morphogénèse) لبيلمُون الذي يُقسّمُ قانونه إلى أربعة مجالات بحث: "الموقع، الوظيفة، البناء و فعلُ التّأثّر".[١٨]

يُعدّ المجال الواحي محمل البناءات، هو حاضن المساكن وحاميها ولعلّه الموقع الأنسب لإنشائها... موقع ومناخ دفعتا بالمساكن إلى اتخاذ منحى مُعيّن في التّشييد، فعنصر المناخ في علاقته بالمعمار عامّةً يكون عُنصرًا مُؤثّرًا ومُؤثّرًا. بمعنى، يكون مُؤثّرًا في تحكّمه بالمواد الأوّليّة نظرًا لمحدُوديّتها. ومُؤثّرًا عليه، نستشفّه من قدرة سكّان هذه الجهة على التّأقلُم مع المؤثّرات الخارجيّة (المناخ خاصّةً)، وتجاوز المُعيقات (قساوة هذا المناخ)، يعكسُه حُسنُ الإنشاء والبناء "ولعلّ الإقليم هو ما يُحدّد طراز العمارة نظرًا لأنّ المسكن أصلاً هو ملجأ من عوارض الطّبيعة".[١٩]

توازيًا مع الموقع تكون المواد الأوّليّة، ففي بنايات قرية قبلّي القديمة غالبًا ما تقتصرُ المواد المُستخدمة على ما تُوفّره الطّبيعة من حجارة وتُربة وخشب نخيل... مواد لا تتجاوز تلك التي تمتلكها الجهة. إنّ بتوفّر هذه المُعطيات التي تُعتبر من الأولويّات يكون التّوظيف، والمقصودُ بالتّوظيف في هكذا مرحلة هو فعلُ البناء والتّشييد... هو التّأليف بين المواد وإيجاد التّوافق والانسجام الهادفين. أقيمة البناءاتُ لتُسكن أي لتُستهلك وعلى امتداد عمليّة الاستهلاك فإنّ الحوش سيفقدُ بعضًا من ملامحه كتشقّق جدار أو إنخمار حائط لنكون في مرحلة التّداعي، أو هو التّراجع. إنّ التّداعي يستوجبُ المُعالجة، والإصلاح سيتمّ بإعادة التّركيب انطلاقًا من أرضيّة ومواد أوّليّة غالبًا ما تكونُ قد استخدمت سابقًا.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

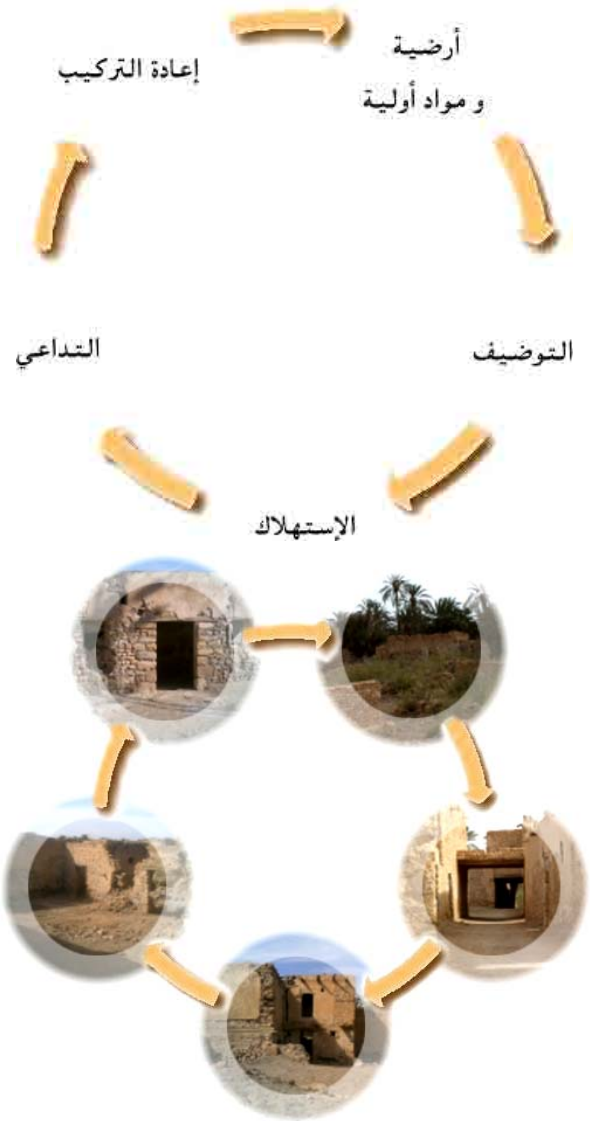

دورة حياة البناء

بيئة المسكن هي المكان الذي تتوافر فيه جميع الشّروط المناسبة لنموّه... لتطوّره... لاستمراره، ولعلّ من أولويّات التّوازن لقيام واستمرار هذا الوجود من نموّ وتطوّر، وجود قانون المنفعة المتبادلة من سكن ومواد. دورة البناء الكلّ فيها فاعلٌ كما الكُلّ مفعول به تقوم على التسلسل والتّتابع، لكن مخالفة القانون قد تُؤدّي إلى اختلال التّوازن. كيف ذلك؟

ثالثا: حدود الدّورة

لعلّ انخراط المسكن في دورة، ما يجعلُه في تبعيّة لها، بمعنى تخطّيها -هذه الدّورة- هو تجاوزٌ قد يؤدّي إلى اختلال منظومة "حياة المسكن". فما هي المعيقات المتسبّبة في تراجع نسق تطوّر الدّورة؟

٣/١- التّراجع:

في تعريف الدّورة: هي"عَوْدُ الشّيء إلى حيث كان أو ما كان عليه".[٢٠] بمعنى، النّهاية هي الاسم الآخر للبداية... بدايةٌ فتحوّل... تطوّرٌ فنهاية... وَعَوْدٌ إلى المُنطلق... إلى البداية. فالمسكن رغم التّحويرات التي تطرأ على وحداته فإنّها لا تتجاوز طمس الملامح الأولى. لكن أليس الفعل المتواصل على المسكن من شأنه أن يقضي عليه فيُقصيه؟

يفضي العملُ على المحمل (أي المسكن) من تحوير وتغيير متواصل في الوحدات من هدم وبناء... زيادة ونقصان توسّع وإضافة... إلى إنهاكه بمعنى، تتعدّى طاقة احتماله ليقع بالتّالي تشييد على أنقاض. ربّما هو توقّف للدّورة وانتهائها؟ أو هو تراجعها؟ لعلّ التّراجع (صورة رقم 12) هو إحدى مقوّمات الدّورة، وهو ما أسميناه "التّداعي". تستحيل بعض وحدات "الحوش" في وضع يستوجبُ المعالجة ممّا يقتضي استدعاء أفعالٍ: "كالتّمليس"،[٢١] و"التّرقيع"،[٢٢] والتّرميم... لتتكرّر الأفعال وتتواصل الدّورة في استمراريّتها بالعمل على مُستريحٍ.[٢٣]

صورة رقم (١٢) حائط معالج باستخدام تقنية التّرقيع

لكن ماذا عن التّراجع المرفوق بالتّخلّي عن وحدة كاملة مثل "بيت" أو "مخزن"؟ هذا التّخلّي يكون سواءً بتغيير وظيفة وحدة سكنيّة بأخرى كمثل "دار" تُستبدل فتصير "حانوتًا"،[٢٤] فتبقى الوِحدة مُحافظة على شكلها العام مع تحوير بسيط، أو هدمها وإعادة التّشكيل من جديد للحصول على أخرى. إنّ إعادة تنظيم الفضاء السّكني بقبلّي القديمة يكون حسب الحاجة. لكن ألا يمكن أن تكون تتمّة لذات الدّورة بأسلوب جديد ومنهج أجدّ؟

٣/٢- التّجاوز:

لعلّ التّجاوز هو تخطّي الموجود والسّائد. وفي دورة حياة البناء يكون هذا التّجاوز إمّا امتدادًا موسّعًا للدّورة باتّساع رقعة عملها، أو هو تخلّي كلّي عنها، وربّما هو خلق لدورة جديدة بحضور بعضِ مفردات الدّورة الأمّ. وبالاستناد إلى دورة حياته، خطّ المسكن بدايته وخُطّت له نهايات.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

خاتمة

إن البحث في تاريخ مدينة قبلّي القديمة هو بحث عن الهويّة، والأصل، وقراءة في ذاكرة المكان، على اعتبار أنّ البناء لم يكن مجرّد جدران وسقف، بل كان حياة، حضارة وصورة للتاريخ. المسكن وِحدة كما المدينة وِحدة، هي مفردات تتعانق ومساكن تتجاور... قبلّي القديمة بلدُ كلّ من مرّ بها... كلّ حضارة تركت لهذا المرور أثرًا... خطّت على ترابها ممرّات وأزقّة وأشادت البناءات... أثّثت لفضاءات أمكنني أن أقول عنها أنّها بصدد التّأثّث دائمًا، وأسّست لهندسة فضاء أمكنني وصفها بكونها تستوعب كلّ الأسُس، كلّ الحضارات، كلّ نمط بناء وطراز تنظيمٍ لفضاء سّكني حلّ بأرضها.

الهَوامِشُ:

(1) Marc Perelman, *Construction du corps Fabrique de l'architecture : figures, histoire, spectacle*, Editions de la Passion, 1994 P. 31.

(٢) محمّد الأمجد الشائبي، مقال بعنوان "**شمس الجنوب**"، العدد(٣٢)، بتاريخ ٩ أوت ٢٠٠٧، الصّادرة بصفاقس.

(٣) النخلة التي اقتلعت بعد موتها.

(٤) محمّد الصّغيرون، **حديث الواحة**، الشركة التونسيّة للنشر وتنمية فنون الرّسم، الطبعة الأولى٢٠٠٨، ص ١٩.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٦) التّربة في الاستعمال المحلّي هي اللّياط.

(٧) عبد الرّحمان أيّوب، "**من قصور الجنوب التونسي: القصر القديم**"/ المحور الثاني: التجارب وتبادل الخبرات في التنقيب والمسح والمتاحف والاكتشافات الأثرية، مُؤتمر الآثار في الوطن العربي، تونس، ١٩٨٧، ص ٦.

(8) Ben Mansour Ali, *Restructuration et rénovation de l'ancien village de Kebili*, Thése ENAU, 1999, p 67.

(9) *Mohamed*-Habib DAGHARI-OUNISSI, *Tunisie Habiter sa différence «Le bâti traditionnel du sud- tunisien»*, L'Harmattan, p 140.

(١٠)دكتور شاو، **الرّحلة في إيالة الجزائر**، الدار المغربية للنشر، ١٩٩٢. ص ٩٤.

(١١)عبد الرحمان أيّوب، **مؤتمر الآثار في الوطن العربي**، تونس، ١٩٨٧، ص ٢٠.

(١٢)محمّد الأمجد الشائبي، "**شمس الجنوب**"، ع٣٢، بتاريخ ٩أوت ٢٠٠٧، الصّادرة بصفاقس.

(13) Zaghdoud Ali, *mémoire fin d'étude : Un ISET a Kebili*, ENAU, juin 2000, page 86.

(14) ALAIN, *Vingt leçons sur les Beaux-arts*, nrt-Gallimard 20éme édition, 1933, p 164.

(15) ALAIN, *Vingt leçons sur les beaux – arts*, Gallimard, 20éme édition, 1931, page 166.

(١٦)فرانسيس بيكون (٢٨ أكتوبر ١٩٠٩ في دبلن - ٢٨ أبريل سنة ١٩٩٢ في مدريد) رسام ايرلندي.

(17) ALAIN, *Vingt leçons sur les beaux – arts*, Gallimard, 20éme édition, 1931, page 166

(18) BELMONT Joseph, *De l'Architecture à la ville*, du Moniteur, 1989, P. 20.

(١٩)بهنسي عفيف، **أثر العرب في الفنّ الحديث**، اليمامة للنشر والتوزيع، ص٢٦٣.

(٢٠)**المُنجد في اللّغة والإعلام**، دار المُشرق بيروت، ١٩٨٦.

(٢١)**ملس**: المس والملاسة والمُلوسة ضدّ الخشونة وملّسه تَمليسًا، وانملس من الأمر إذا أفلت منه. **(لسان العرب)**

(٢٢)**رقع**: رقع الثّوب والأديم بالرّقاع، يرْقعه رقعًا: ألحم خَرْقَهُ. **(لسان العرب)**

(٢٣)**بناءٌ مُسترمٌّ**: حان له أن يُرمّ لبُعد عهده بالطّين أو نحوه. **(الرّافد)**

(٢٤)**الحانوت**: لدى العامّة هو "مكان مخصّص للتّجارة يكون وحدة تابعة للحوش ومُنفتحًا على فسحة مثل الرّحبة".

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449